دراسات أدبية

يوميات نائب

في الارياف

بقلم الاستاذ محمد شيت الحياوي

مؤلفه

جاء في برقية مصدرها لندن مايلي «نشر للاستاذ توفيق الحكيم القصصي المصري اول كتاب له في الانكليزية وهو ترجمة لكتابه (يوميات نائب بالارياف) وجعل له هذا العنوان (حيرة العدالة) وهو قصة تدور حوادثها حول تحقيق رسمي في جريمة قتل وقعت باحدى القرى المصرية وتتضمن لمحات بارزة وصوراً حية للحياة الريفية في مصر. وقد كتب الدكتور حافظ عفيفي باشا مقدمة للكتاب قائلا انه نقد لاذع للحياة العامة في مصر والعيوب المحزنة التي تقتضي الاصلاح العاجل وشبه الاستاذ توفيق الحكيم بالقصصي المعروف (ديكنز) وامثاله من كتاب الانكليز في القرن الماضي الذين كان لكتبهم أثر في قيام الاصلاح الاجتماعي. والكتاب مترجم بقلم المستر ايبان وتولت طبعته مطبعة هرفيل في لندن ويباع بسبعة شلنات وستة بنسات اهـ)

والاجدر بنا نحن ابناء العربية ان نتعرف على كتابنا ومؤلفاتهم قبل غيرنا ومن اجل هذا الغرض فسأحاول تعريف هذا الكتاب وابين مزاياه فاقول: ان الاستاذ توفيق الحكيم يعتبر من الكتاب المشهورين في مصر والعالم العربي. وقد عكف المثقفون ولا سيما المتجددون على كتبه ومؤلفاته يقرؤونها يتدارسونها بشغف ولذة. بل ان شهرته طفرت الى العالم الغربي كما رأينا. واخال ان كتاباته اقرب ماتتسم بطابع التفكير الغربي الذي من اهم ميزاته سعة الخيال الذي قد يكون احياناً خصيباً منتجاً واحياناً سخيفاً بارداً.

فالمؤلف ينحو هذا المنحى في معظم كتبه وهذه اهمها: محمد، تحت شمس الفكر، تاريخ حياة مغدة، شهر زاد، اهل الكهف، عودة الروح، اهل الفن. مسرحيات توفيق الحكيم... الخ.

وقد ترجم (شهر زاد) ونشر في باريس ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الاكاديمية الفرنسية كما ترجم كتاب (عودة الروح) ونشر بالروسية في لنينجراد عام ١٩٣٥ وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧.

وصف الكتاب

ان الكتاب عبارة عن وصف الحياة الريفية بمظاهرها المختلفة من اجتماعية وعقلية وخلقية ودينية، فمن اهم ماتمتازبه الجهل والفقر والبساطة ويتمثل الجهل في تعابير الفلاحين وعقائدهم الخرافية كما ان الامية هي السائدة بين السواد الاعظم ويتمثل الفقر في القروي الى درجة انه يتقصد ارتكاب الجريمة كي يحظى بلقمة الخبز في السجون (ص ٨٢) فالفلاحون فقراء لايتيسر لهم طعام يسدون به رمقهم اوملابس يسترون بها اجسامهم أما مساكنهم فهي عبارة عن اكواخ مفروشة بالقش. هم بسطاء وتبدو بساطتهم واضحة في اغانيهم الريفية وتعابيرهم القروية (ص ٢٤، ١٠٣).

كل مادة الكتاب تبرز في وقائع وحوادث جرت في ايام متوالية ابتدأت في الحادي عشر من اكتوبر وانتهت في الثاني والعشرين من الشهر نفسه واهمها فضيحة شغلت معظم صفحات الكتاب وكانت اصلا لموضوعه ومحورا له:

مقتل فلاح يدعى قمر الدولة علوان ثم فتاة حسناء اسمها «ريم» كان وصياً عليها ثم يتبين بعد ذلك ان زوجة قمر الدولة التي هي اخت الفتاة تموت خنقاً قبلها. وبعد التحقيقات الطويلة والجلسات الكثيرة لاتكشف معالم الجريمة ولا يعرف سرها فيسدل الستار عليها شأن اكثر الجرائم التي تقع في الريف! ويكتنف الكتاب المشقات التي ذاق مرارتها الكاتب والعقبات التي صادفته والاتعاب التي انهكته اثناء قيامه بوظيفته وهو وكيل للنيابة حيث وقعت الحادثة مارة الذكر فاستعرض الكاتب فصولها فصلا فصلا.

يستطرد الكاتب في كل مناسبة فيذكر من جهة حالة بعض الموظفين في الريف ويشرح ماهم عليه من الظلم وسوء

الحال بسبب فساد الحالة الاجتماعية ومذلة السكان وانحطاط بيئتهم (ص ٧٩ ، ١٠٥) . ومن جهة ثانية تراه اشد وطأة - واكثر انتقاداً للموظفين الآخرين فيصور حالتهم بين الخمر والنرد كما يبين استبدادهم بالاهلين وعدم رعاية مصالحهم (ص ١١٢ ، ١١٦) ثم يقارن بين الموظفين فيقرر رفاهية بعضهم وسعادتهم الى جانب شقاء الاخرين وبؤسهم ولا يفوته ان ينوه بسوء اعمال البعض واهمالهم وارتشائهم ثم يعزو اسباب ذلك كله الى سوء التربية (ص ٢٢٢) والى فساد الاوضاع السياسية وتأثيرها على الموظفين والاهلين جميعاً بالمحسوبية والمنسوبية الا عند تشكيل وزارة جديدة نراها تنزل في اكثر الاحيان عمدة القرية (المختار) الموالي للوزارة السابقة وتعين بدله من مؤيديها فاذا تم ذلك قامت الافراح والاعراس في بيت المنصوب وحدثت الاتراح والمآتم في بيت المخلوع فيشترك الفلاحون جميعاً في هذا الوضع المضحك المبكي « ص ١٣٧ ، ١٥٦ »

ويظهر نقد الكاتب بارعاً في المسائل القضائية والامور التشريعية ص ١٦٦ ، ١٨٥ وفي ص ٢٣٠ يقول :

(ذلك ان العدل والشعب ... الخ كلمات لم يزل معناها غامضاً عن العقول في هذا البلد . كلمات كل مهمتها ان تكتب على الورق وتلقى في الخطب كغيرها من الالفاظ والصفات المعنوية التي لا يحس لها وجود حقيقي .)

فهو يتحمس بسرعة وينقد عن لوعة . وقد يتأثر من حادثة معينة فيندفع ويحكم حكماً تاماً في ص ٢٢٥ حيث يقول:

(ان الحضارة العظيمة لا تزيل الشر ولا تمحو الجريمة ولكنها توجد الشر العظيم والجريمة العظيمة .)

ولا يقف نقده عند حد فهو لم يدع امراً فاسداً الا حمل عليه فيصور نظام حلاقي الصحة ونظام الدايات ونظام الانتخابات ... الخ

اسلوب الكاتب

اسلوبه سهل وقد تؤدي سهولته الى التعابير العامية وحشد الكلمات الاجنبية خلال الجمل العربية كذكره « البوكس فورد » وتشبيهه : (رولز رويس) ص ١١ ودغل (البوص والقضيب) ص ٢٩ .

واسلوب الكاتب قصصي روائي فلا عجب اذا وجدناه يبلغ الذروة في معالجة موضوع سداه القصة ولحمته المشاهدة أعني موضوعنا (يوميات في الارياف) كما وفق لنفس السبب في كتابه « محمد » وغيره من الكتب والمؤلفات .

وقد يندفع الكاتب الى التطويل في بعض الاحيان كما في حديثه عن القهوة « ص ١٧ » ..

ولا ننسى قوة « بيان » الكاتب حيث يمثر الغواص على عدة لآلئ بلاغية مبثوثة في طيات الكتاب هنا وهناك كقوله في ص ١٦ (ولا عجب فلكل نوع من الزروع محصوله من الجرائم » وفي ص ١٧٥ » وعندي ان نظرة واحدة تلقى على مخزن نيابة اي بلد تدل في الحال على لون هذا البلد وعقليته ودرجة حضارته) وفي ص ٢٦ يصف فتاة حسناء: « كانها دمية من الابنوس طعمت في موضع الرأس بالعاج »

وهو لا يستعمل المحسنات البديعية الا نادراً كقوله ص ٩٤ عن رجل اسمه الشيخ عصفور : « العجيب في الامر ان يستطيع هذا العصفور ان يختطف هذه الزنبقة ونحن عنه غافلون .

ويمكننا ان نؤاخذ الكاتب على بعض عباراته كقوله ص ١٧١ : [أما انها قلة مقدرة وضعف ثقة بالنفس - يعني الاستئجار على القتل - منشؤها اشتغاله - يعني الفلاح المصري - باعمال العبيد من قديم في الارض والزراعة وترك الفروسية والجندية للمغيرين واقرانهم بنا عهداً الاعراب والاتراك . ان الملاحظ على اشهر محترفي القتل في الارياف انهم من دم اجنبي] . فنحن لا نوافق المؤلف على تفريقه بين المصريين والاعراب اذ هم قد اختلطوا فكونوا شعباً واحداً هو العرب المستعربة كما لا نقره على مساواته الاتراك بالعرب في حكم مصر اذ شتان بين الاتراك الحكام الاجانب وبين العرب الاهالي المستوطنين !!

ومن اللائق ان نختم بحثنا بوصف الكاتب للقلم مما يدل على شغفه بالعلم ورغبته في العمل حيث قال ص ١٠٦ :

« ان القلم لامثالنا ممن كتبت عليهم الوحدة ، ولكن القلم كالجواد ينطلق احياناً من تلقاء نفسه كالطائر المرح واحياناً يحرن ويثبت على قدميه ويابى ان يتقدم كأن في طريقه افعى